علاقة المقاومة المسلحة التونسية بالثورة التحريرية الجزائرية

د. لمياء بوقريوة

جامعة باتنة

مقدمة

ترجع إرادة الشعب المغاربي في الوحدة والتضامن الى جذوره التاريخية والثقافية المشتركة،فقد أدرك بأنه شعب واحد مهما تكرست بينه الحدود الاستعمارية.إذ يذكر محمد حربي ،أن مصالي الحاج هو الذي أقر بضرورة الكفاح المسلح ابتداء من سنة 1951 حيث بدأت تونس تتحرك في هذا الاتجاه.

ولما انطلقت المقاومة المسلحة في تونس (جانفي 1952–ديسمبر 1954)،رأت اللجنة الثورية للوحدة والعمل ضرورة مسايرتها، فأدى هذا الى محاولة التقارب والاحتكاك بهذه المقاومة خاصة في الجنوب التونسي،فكانت بداية هذا التقارب في القاهرة عن طريق ابن بلة وجماعة الوفد الخارجي في القاهرة الذين كانت لهم علاقة متينة مع الإخوان المغاربة والتونسيين وعلى رأسهم الهاشمي طود ،كما كانت لهم علاقات مع مكتب المقاومة التونسية بطرابلس.من خلال هذا الموضوع ،نريد الإجابة عن الإشكالية التالية:

كيف كان العمل والتنسيق بين الإخوان التونسيين بقيادة رجل المقاومة التونسية الطاهر الأسود وإخوانه الجزائريين ثم الإعلان عن استقلال تونس وتوقيع اتفاقية مارس 1956 وتسليم السلاح من طرف المقاومة التونسية بعد تحقيق غرضها الذي كان الاستقلال التام للوطن التونسي،ثم استمرار هذه العلاقات مع الحكومة التونسية الجديدة بقيادة الحبيب بورقيبة.وتمركز وحدات جيش التحرير الوطني الجزائري على الحدود الجزائرية التونسية،وكيف كانت عملية تمرير السلاح عبر الحدود التونسية للثورة الجزائرية ،وهل كان للمعارك التي قادها جيش التحرير الوطني الجزائري ضد القوات الاستعمارية عبر الحدود الشرقية انطلاقا من القطر التونسي وكذلك نشاطاتها المستمرة ضد القوات الفرنسية قرب المراكز العسكرية التونسية تأثيرا على العلاقة بين البلدين.

أولا /أهمية المنطقة الجنوبية الشرقية الجزائرية عبر التاريخ

إن مناطق الجنوب وخاصة" وادي سوف " مثلت مركزا هاما ، يقدم الدعم المادي و المعنوي للثائرين بتزويده بالمال والسلاح والرجال إن إقليم " وادي سوف " كان منطقة عبور إلى تونس وطرابلس ، وهو فضاء مفتوح يسهل التنقلات بمختلف أشكالها مما يجعل لحدود الجنوبية والشرقية غير أمنة

في نظر الاستعمار الفرنسي . استعداء المقاومين الشعبيين ، و الحكام المحليين في الصحراء لبايات تونس ضد فرنسا ، وطلب الدعم و المؤازرة منهم مثلما فعل الحاج أحمد باي سنة 1838 ، وسلطان تقرت سلمان الجلابي سنة 1853 .

السعي الفرنسي الحثيث في إطار الصراع مع القوى الأوربية المتنافسة للهيمنة على تونس وليبيا ، يدعوها إلى التوغل نحو الجنوب الجزائري حتى تكون قواتها على مقربة من حدود تلك البلدان ، حتى تستغلها في وقت الحاجة لصد القوات التونسية المنهزمة نحو الجنوب ، عندما تتمكن من غزو تونس عبر البحر الأبيض المتوسط أو من الجهة الشمالية الشرقية لالمرحلة الثالثة (1854–1872): المقاومات الشعبية بسوف و ردود الفعل الفرنسية بعد انتهاء معركة المقارين 1854 , بهيمنة العقيد ديفو على تقرت و سوف , و تم تولية علي باي بن فرحات بن سعيد حاكما على وادي ريغ و سوف . ويومئذ التجأ الثوار إلى تونس و هم سلمان الجلابي و الشريف محمد بن عبد الله و بالناصر بن شهرة , بينما استفرغ العقيد ديفو جهده لأحكام السيطرة على وادي سوف خوفا من تحركات المقاومين المستقرين قريبا من الجهة , و ذلك دفعه إلى القدوم إليها في الخريف 1855 بطابور عسكري استقرت قواته يوم 6 ديسمبر بالدبيلة القريبة من حدود تونس , و بدا في جمع معلومات عن السكان و الثوار , فتأكد أن الثوار استقروا بنفزاوة التونسية , و بعد استكماله جمع المعلومات العسكرية اتجه نحو تقرت في حدود ديسمبر 1855 .

و قد وجه العقيد ديفو رسالة بتاريخ 12 ديسمبر 1855 الى كافة سكان وادي سوف و وادي ريغ يحذرهم من من يحاول اخذ أموالهم باسم حاكم بسكرة و ينبههم إلى التأكد من ختم الحاكم, و أعقب ذلك برسالة أخرى يوم 25 ديسمبر 1855 على شكل أمر عين بموجبه علي بن عمر بن سعيد خليفة على كافة وادي سوف .

احتضان وادي سوف للمقاومين و دعمها لهم:

لقد تحولت المناطق الصحراوية الجنوبية إلى معاقل للثوار ، وملجأ للمقاومين الذين يأوون إليها لاسترجاع أنفاسهم وإعداد قوتهم للانقضاض مرة أخرى على جحافل الجيش الفرنسي ، كما كانت ملاذا أمنا للهاربين من المتابعات الفرنسية في الداخل أو الأجانب الفارين من أنظمة الحكم في ليبيا وتونس .

وساهمت وادي سوف مساهمة فعالة في دعم المقاومين بشتى أنواع الدعم المادية و البشرية , ساعدها في ذلك مجاورتها لأسواق السلاح المجاورة لها في تونس و طرابلس . و قد نشط المقاومون في عملية جلب الأسلحة و الذخائر من هذه

الأسواق و منهم بوشوشة و محمد بن عبد الله و بن ناصر بن شهرة و محي الدين بن الأمير عبد القادر , و كانت يومئذ منطقة سوف و بلاد الجريد من أهم معابر قوافل السلاح الى المقاومين , مثلما فعل بوشوشة عام 1871 .
و قد أزعج هذا الفعل السلطات الفرنسية التي عرفت بهذا الأمر عن طريق الجالية اليهودية في تونس , و التي تم إقناعها فامتنعت عن بيع الأسلحة للثوار .

وأثناء حركة المقاومة التي قادها محي الدين بن الأمير عبد القادر بالمنطقة الجنوبية في الخط الممتد من طرابلس مرورا بسوف الى نفطه التونسية أشارت تقارير الإيالة التونسية عن تنقل قوافل السلاح في هذه المنطقة .
و قد عثر الفرنسيون على بطاقات صادرة من زاوية نفطه للمقدم إبراهيم بن عبد الله يحث فيها الناس على جمع الأسلحة و محاربة الفرنسيين . و وصلت هذه البطاقات و الرسائل الى مدينة تقرت و وادي سوف . و كانت قبيلة الشعانبة بسوف ذات نشاط واسع في عملية شراء الأسلحة و توفير الذخائر و جلبها من الجريد التونسي عبر سوف لتكون وقودا للمعارك . و الى جانب السلاح كانت المقاومة في حاجة الى التموين المالي و المادي بفرض الضرائب و الإتاوات أو الإغارة على الإبل و الأغنام و أخذها عنوة من طرف المقاومين و خاصة الحكام المحليين واعوان الإدارة الفرنسية . ففي عام 1850 قدم الشريف محمد بن عبد الله من الحج الى طرابلس ومنها اتجه عبر غدامس الى سوف , واستقر في ورقلة وقاد منها حركة المقاومة التي احتاجت إلى الأموال , فرجع الى سوف قبل معركة المقارين لجمع الإعانات من السكان .

ولم يتخلف سكان وادي سوف أيضا عن دعم المقاومين بالرجال سواء في جيش غومة المحمودي الذي شكل السوافة جزء هاما من جيشه , واستمرت مناصرتهم له في قتاله الى معركته النهائية , أو ضمن جيش بوشوشة الذي انضم إليه العديد من أهل سوف سنة 1871 عندما غادر مدينة قمار أثناء صراعه مع أتباع علي باي .

واستمر جيش بوشوشة يقاتل أعوان علي باي في الزاب تحت قيادة بن ناصر بن شهرة بمؤازرة قبائل طرود والشعانبة من سكان وادي سوف .
وإذا كانت وادي سوف محطة للتزود , و معبر للسلاح و رجال المقاومة الشعبية, فان زاوية "مصطفى بن عزوز" بنفطه كانت على صلة وثيقة بأهل سوف و رجال المقاومة الذين يمرون بالمنطقة و يستقرون بهذه الزاوية التي صارت

مركزا للراحة , و قاعدة عسكرية ينطلق منها الثوار نحو الجنوب , لمقاومة أعوان الاستعمار في وادي ريغ و الزاب و ورقلة و الأغواط, أو نحو تبسه و نقرين من الجهة الشرقية . و قد دفع هذا العمل السلطات الاستعمارية الفرنسية الى تكثيف متابعاتها للثوار في هذه المنطقة, و كان لها سعي حثيث و عمل جاد , من اجل إحكام السيطرة على وادي سوف تمهيدا لاحتلال تونس .

ثالثا اندلاع المقاومة التونسية:

ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وما وقف عليه العالم من دمار كوني على مستوى الضحايا والممتلكات وما خلّفته من مآسي للإنسانية وجروحا لم تندمل بعد (التقسيم العالمي جيوبوليتيكا ومخلّفاته العرقية والعنصرية، "المحرقة" النازيّة وعقدة اليهود وتعويضهم بوطن خاص في فلسطين...) كلّ ذلك قد مهّد لقيام حركة "عالمية" لمناهضة الاستعمار وإدانته وعبر دعم حركات التحرّر الوطني في عديد بلدان العالم كلّ حسب درجة تطوّر الوعي فيه. وقد تزعّم كتلة الدفاع عن المستعمرين وضحايا الإستعمار البربري، الإتحاد السوفياتي بقيادة ستالينيّة مستمدّا هذا الدعم من مقولات الماركسيّة اللينينية، تعتبر أنّ السير بالبناء الاشتراكي لا بدّ أن يدمج قضية البناء الاقتصادي بالتحرّر السياسي، وأنّ البلدان التي تخضع تحت السيطرة الإمبريالية هي احتياطي للدولة الاشتراكية العالمية، لذلك لابدّ لنضالها أن يجمع بين مقاومة الاستعمار وتوطيد الوعي الطبقي، حتى تضمن أحقيّة قيادة الصراع الطبقي على مستوى وطني وعالمي.

ولئن كانت الانتصارات التي تحرزها المقاومة في هذا البلد أو ذاك، سببا في تدويل قضية التحرّر الوطني، فإنّه يعتبر ثانويّا مقارنة ببروز نوازع وطنية لدى "المثقفين" واتّجاه العمل الوطني خاصة من النخبوية إلى الجماهيرية. وقد سمح ذلك باشتداد وتيرة الاستغلال الفرنسي لثروات البلد وما خلّفه من ردّات فعل واعية عبر الإضراب والاحتجاج، خاصة بقيادة "الإتحاد العام التونسي للشغل" وزعيمه النقابي الوطني الشهيد فرحات حشّاد.

بدأت المقاومة التونسية المسلحة ضد الفرنسيين بعمليات فدائية جريئة في جنوب تونس في 18 يناير 1952 ،يقول المراقبون أن تونس كانت خلال الحرب العالمية الثانية مسرحاً للعمليات العسكرية بين دولتي المحور (ألمانيا وإيطاليا) من جهة ودول الحلفاء (بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا الحرة من جهة أخرى

فقد دخلتها جيوش الحلفاء في 8 . 5 . 1943 ، وأقدمت على خلع الباي محمد المنصف ونفيه من البلاد وشنت حملة واسعة من القتل والتنكيل بالمواطنين التونسيين ، وفرضت الأحكام العرفية والعسكرية على البلاد ، متهمة الباي والحركة الوطنية بالتعاون مع قوات المحور .

وعينت الحكومة الفرنسية محمد الأمين بايا على تونس ، مما أثار غضب التونسيين الذين أعلنوا الاضراب العام ونظموا المظاهرات سنة ,1947 واندلعت المقاومة الوطنية التونسية في تموز 1948

مطالبة بإلغاء نظام الحماية الفرنسية على البلاد .
وفشلت المساعي الدبلوماسية السلمية بين سنتي و1949 1952 في التوصل إلى تسوية بين قيادة الحركة الوطنية التونسية والحكومة الفرنسية. وعقدت الحركة الوطنية مؤتمراً سرياً في 18 . 1 . 1952 قررت فيه سقوط الحماية، واعتبار المعمرين الفرنسيين جالية أجنبية. وفي اليوم نفسه اعتقلت السلطات الفرنسية عدداً من قادة الحزب الدستوري الجديد وفي مقدمتهم الحبيب بورقيبة والمنجى سليم والهادي شاكر . وبدأت المقاومة التونسية المسلحة ضد الفرنسيين بعمليات فدائية جريئة في جنوب تونس وفي منطقة قابس خاصة .

وتعرضت ثكنات الجيش الفرنسي في أبي لبابة قرب قابس ، والقوافل العسكرية الفرنسية على طريق سوسة ، وفي بلدة العوينات. وردت السلطات الفرنسية على نشاط حركة المقاومة الوطنية بتكوين عصابة إجرامية من المعمرين الفرنسيين باسم "اليد الحمراء" ، لملاحقة الوطنيين واغتيال قياداتهم تحت حماية الشرطة والجيش الفرنسيين. وقامت حركة المقاومة الوطنية بنسف مقر هذه العصابة في العاصمة التونسية ، وتدمير ثكنة للجيش الفرنسي في صفاقس ونسف محطة الكهرباء في المدينة نفسها. وهاجمت قوات المقاومة قطاراً يحمل الجنود الفرنسيين من مدينة قفصة الى مدينة الملتوي ، وقطاراً آخر اجتاز الحدود بين تونس والجزائر .

اغتالت عصابة اليد الحمراء الفرنسية فرحات حشاد ، السكرتير العام للاتحاد العام التونسي للشغل ، في 5 . 12 . 1952 ، مما زاد في زخم المقاومة المسلحة واشتعال الثورة .

وأعلن الاتحاد العام التونسي للشغل الاضراب العام في البلاد. وتضاعفت هجمات المقاومين على الأهداف الفرنسية ، وأحرقوا ثماني ثكنات عسكرية فرنسية في شمال البلاد وثلاث ثكنات في جنوبها ، ودمروا اثنتي عشرة سيارة. واندلعت المظاهرات والمجابهة مع القوات الفرنسية في تونس العاصمة وصفاقس وقفصة استشهد فيها (63) تونسياً وجرح (237) منهم .

واشترك في الصدامات التي جرت في المدن التونسية الرئيسية مثل العاصمة وبنزرت والحمامات والقيروان وسوسة وصفاقس العمال والطلبة والنساء. وقام طلبة جامع الزيتونة بدور مهم في هذه الحركة. إذ كان جامع الزيتونة ملتقى للتجمعات الشعبية الكبيرة ، ومنطلقاً للمظاهرات التي كانت تنتهي بالصدام الدموي مع القوات الاستعمارية. وتطورت هذه الصدامات الدامية الى العمل الفدائي المنظم في مجموعات مسلحة صغيرة العدد. وكانت البداية في مدينة بنزرت. وتوسعت حركة المقاومة التي اتبعت اسلوب حرب العصابات ، بقطع أسلاك الهاتف ، والهجوم على الثكنات العسكرية وعلى القوافل العسكرية ، وتدمير السكك الحديدية والجسور والطرق ، ونصب الكمائن لدوريات الحرس والجيش الفرنسي .

بدأ العمل المقاوم المسلح بجمع السلاح وتجنيد الرجال المدربين على حمل السلاح من أمثال: الطاهر الأسود وبلقاسم البازمي ، وسعد بعر ، وعلي بوالشنب المرزوقي ، وأحمد الأزرق ، ومصباح الجربوع ،

والساسي البويحي ، وعمار بني. وبلغ عدد هؤلاء المقاتلين في سنة 1954 نحو ثلاثة آلاف مقاتل. كان الجنوب التونسي مركز قيادتهم ومسرح نشاطهم. أما عدد القوات الفرنسية التي تجمعت في تونس لمجابهة هؤلاء المقاومين فقد تجاوز مئة ألف مقاتل من مختلف الأسلحة من مشاة ودروع ومدفعية وسلاح جو .
وقد سبقت حركة المقاومة المسلحة التونسية الثورة الجزائرية التي اندلعت صباح الأول من تشرين الثاني 1954 وكانت حافزاً قوياً لانطلاقها بعد النجاح الذي حققته والاضطرابات الذي أحدثته في صفوف القيادة السياسية الفرنسية .

واستمرت المقاومة المسلحة طوال سنة 1953 ورافقها حملات عسكرية فرنسية نكلت بالتونسيين واعتقلت الآلاف منهم. واعتدت على ممتلكاتهم واختطفت عصابة اليد الحمراء المناضل الهادي شاكر واغتالته رمياً بالرصاص في 13 . 9 . 1953, واستخدم المقاومون التونسيون الأسلحة الحديثة سنة 1954 ، وتمكنوا من قتل الكولونيل دولابايون في تلك السنة ، وبلغ عدد القتلى من الفرنسيين في الأشهر الأربعة من نيسان الى نهاية تموز 1954 (155) قتيلاً و (74) تونسياً من المتعاونين مع فرنسا وجرح (97) منهم .

وفي 31 . 7 . 1954 زار منديس – فرانس Mendes France رئيس الحكومة الفرنسية ، تونس وعرض على قيادة الحزب الدستوري الجديد الحكم الذاتي ، فقبلت بهذا العرض. وتألفت وزارة في تونس برئاسة الطاهر بن عمار اشترك فيها ثلاثة من قادة الحزب الدستوري. ووجه المقيم العام الفرنسي في تونس دولاتور de la Tour نداء الى المقاومين لإلقاء السلاح وتسليمه للسلطات الفرنسية ، غير أن المقاومين لم يستجيبوا لهذا النداء ، واستمر القتال بعد تشكيل الحكومة التونسية الجديدة .

ونشأ خلاف بين رئيس الحزب الدستوري الحبيب بورقيبة والأمين العام للحزب صالح بن يوسف حول تسليم الأسلحة قبل بدء المفاوضات التونسية – الفرنسية حول مستقبل البلاد .

فبينما طالب بورقيبة بتسليم السلاح والتخلي عن الكفاح المسلح ، رفض ابن يوسف تسليم السلاح قبل معرفة مصير تونس بعد هذه المفاوضات. وأسفرت المفاوضات بين الحكومة التونسية وفرنسا عن إبرام اتفاقية الاستقلال الذاتي في 3 . 6 . 1955, لم يطل الاستقلال الذاتي إذ أبرمت اتفاقية استقلال تونس في 20 . 3 . 1956 ، التي لم ترغب في الانضمام إلى جامعة الدول العربية الا في سنة 1958 ، بسبب موقف بورقيبة من جمال عبد الناصر الذي أيد خصمه صالح بن يوسف.

رابعا/ المقاومة التونسية وعلاقتها بالجنوب الجزائري:

لقد كان للمعادلات الدولية الجديدة المترتبة عن الحرب العالمية الثانية، وغيرها من العوامل الإقليمية و الدولية، آثارها وانعكاساتها على تطور الأوضاع في كل من تونس و المغرب الأقصى في صراعهما ضد إدارة الحماية الفرنسية.

وكان من شأن تلك المتغيرات أن تجعل خيار العمل المسلح لا يحتل الصدارة في وسائل المقاومة لدى الحركتين الوطنيتين في كل من تونس و المغرب الأقصى، ولذلك فإنه حتى وإن اندلعت المقاومة المسلحة

المحدودة منذ مطلع الخمسينات في القطرين ضد الوجود الفرنسي، فإن قادة الحركتين الوطنيتين كانوا ينظرون للعمل المسلح كعامل محدود ومساعد في عملية يحتل فيها العمل السياسي التفاوضي المقام الأول (1) ومن هذا المنظور فقد حرص الطرفان)التونسي و المغربي) على أن لا تتطور الحالة الثورية التي بدأت تعم القطرين إلى عملية ثورية واسعة النطاق، خاصة وأن المقاومة التونسية كانت تجد في الشرق الجزائري لا الدعم و المساندة الشعبيين فحسب ، بل وصل الأمر حسب شهادة العقيد مصطفى بن عودة إلى درجة انتساب (تجند)مناضلين من الحركة الوطنية الجزائرية في صفوف المقاومة التونسية، إذ يذكر في هذا الشأن قوله :"..في الوقت الذي كان فيه (الفلاقة) (2)بتونس يواصلون الثورة كانت منطقة سوق أهراس تعيش أحداث الثورة مع تونس حتى أن الثوار التونسيين الذين كانوا يسمونهم باسم (الفلاقة) كانوا يلتجئون إلى الجزائر وبالضبط إلى ناحية سوق أهراس وكانت لهم اتصالات بالسيد باجي المختار رحمه الله وكان يقدم لهم المساعدة و التموين بالسلاح و الذخيرة و الأفراد حتى أن بعض الجزائريين كانوا قد التحقوا بصفوف الفلاقة ومن بينهم السيد لزهر شريط رحمه الله و السيد العقبي الذي كان مسؤولا عن الفداء داخل تونس و الذي قتل العقيد تونسي بالقصبة بتونس ، فهؤلاء المناضلين كانوا أعضاء بالمنظمة العسكرية و السرية ومناضلين في صفوف حزب الشعب الجزائري ."(3(

إن ذلك التفاعل مع المقاومة التونسية إذًا كان يؤكد حقيقة الطموح الشعبي على المستوى المغاربي في إقامة جبهة التحرير موحدة وحقيقية بين الأقطار المغاربية الثلاث (حزب الاستقلال، حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، الحزب الدستوري الحر) لم تتمكن من تجاوز "قطريتها " وأصبحت عرضة "لانقسامات داخلية " جعلت كل منها تميل إلى العمل المنفرد وتسعى قيادتها إلى التحكم وإثبات الوجود على مستوى التنظيم الحزبي، أي أن الإستراتيجية العامة للقيادة الحزبية في التنظيمات الثلاث كانت مدفوعة بالرغبة في البقاء في صدارة التنظيم ،وهو الأمر الذي كانت له انعكاساته على القواعد النضالية لتلك الأحزاب و التي بدأت تعمل في اتجاه بلورة عمل عسكري موحد على المستوى المغاربي ، وفي هذا الصدد يذكر الأستاذ (عبد الحميد مهري (أنه بعد مؤتمر حركة الانتصار للحريات الديمقراطية (أفريل 1953) اتصل به شابان مغربيان قدما من تونس أرسلهما إليه الطاهر قيقة ، ويقول (مهري) بشأنهما : ..."كانت مهمتهما الظاهرة أنهما يريدان الذهاب إلى المغرب مسقط رأسهما...ولكنهما جاءا في الواقع يطلبان مني أن أمكنهما من الاتصال بأحمد مزغنة (4)لتنظيم حركة المقاومة المسلحة في الجزائر و الإسهام في تنسيق حركة مسلحة في المغرب العربي كله " ويضيف مهري قوله :" وبعد الحديث معهما تعرفت إلى حقيقة هويتهما ،كان هذان الشابان هما الهاشمي الطود و حمادي الريغي (الذي وقع بعد اندلاع الثورة في أسر القوات الفرنسية بالولاية الثالثة سنة 1955 على ما أذكر) وعن اتصالاتهما وعلاقتهما يقول مهري :"...فهمت منهما أنهما على اتصال وثيق بجبهات ثلاث : الأمير عبد الكريم الخطابي من جهة ومصالح المخابرات المصرية من جهة ثانية وبعض ممثلي حزب الشعب في مكتب المغرب العربي من جهة ثالثة، وأنهما اتصلا بعدد من المسؤولين في الديوان السياسي بتونس قبل

مجيئهما الجزائر، وينويان القيام بسلسلة أخرى من الاتصالات في المغرب لنفس الغرض."وعن نتيجة مهمتهما في الجزائر يذكر مهري قوله أنه سألهما عما يهمهما بالذات هل هو اللقاء بأحمد مزغنة أم الاتصال بمن يستطيع القيام بمسؤولية الكفاح المسلح ؟..."فأجابا بدون تردد بأن الشخص لا يهمهما بقدر ما تهمهما المهمة ذاتها فجمعتهما حينئذ بمحمد بوضياف (5) واتفقنا معهما على استكمال البحث بعد رجوعهما من المغرب وإعطائنا صورة عن الوضع هناك للاتفاق نهائيا على خطة تضمن تنسيق الكفاح في المغرب العربي . و قد تم هذا فعلا بعد رجوعهما واعتقد أنهما حملا معهما صورة مشجعة عن الوضع في الجزائر و كان سفرهما نقطة انطلاق للاتصال بعدة جهات كما كانت الأنباء التي حملاها إلينا من العوامل التي جعلت الإخوان يضاعفون الجهود للاستعداد لخريف 1953 الذي كنا ننتظر أحداثا هامة)6(".

إن مضمون هذه الشهادة من أحد رجالات الحركة الوطنية الجزائرية، وشهادة مصطفى بن عودة، حول تفاعل سكان الشرق الجزائري مع المقاومة التونسية في وقت كانت فيه حركة انتصار للحريات الديمقراطية تعرف انقساما حادا. كلها عوامل تؤكد أن القواعد الشعبية و النضالية كانت سباقة للتعبير عن طموحها الثوري ميدانيا متجاوزة بذلك عجز الحركات المغاربية الثلاث عن تجاوز الطموحات الذاتية لقياداتها والتجارب مع الإدارة الشعبية المعبرة عن طموحها في تكوين جبهة مغاربية تحررية تشمل الأقطار الثلاث ، وهي الإدارة التي كانت قد صدمت بجملة من الرؤى المثبطة لاتجاهها من ذلك أن الطرفين المغربي والتونسي حرصا على أن يكون إطار العمل المسلح مجالا وزمنا إطارا محدودا لكونه عنصر في التفاوض السياسي لإلغاء اتفاقيتي الحماية و الإخراج القضيتين من الحيز الثنائي تونسي –فرنسي، مغربي –فرنسي ، إلى مجال أوسع (التدويل) تجد فيه القضيتان ما يرجح كفتيهما ،وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا بالنسبة للجزائر فوضعها يختلف إذ لا تكفي " أعمال عسكرية محدودة "أو " نشاط تخريبي " لجعل فرنسا تتخلى عن " الحق " الذي منحته لنفسها في الجزائر منذ السنوات الأولى للاحتلال و القائم على فكرة أن " الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا . "ولم يتصور التيار الاستقلالي، على الأقل منذ مجازر 8 ماي 1945 ومؤتمر 1947 ، تاريخ إنشاء " المنظمة الخاصة "OS يقوم على اعتبار " العملية الثورية " عملية مختصرة في "مناوشات محدودة زمنا ومكانا". ولم يكن أيضا من شأن عمل عسكري محدود ضد الوجود الاستيطاني الفرنسي في الجزائر أن يجعل الإدارة الاستعمارية، وكذا الطبقة السياسية الفرنسية على اختلاف انتماءاتها السياسية، أن تسلم بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم (7. (

وقد كانت تونس مقصدا رئيسا للمهاجرين الجزائرين لجئت الكثير من عائلات قسنطينة وبجاية وواد سوف وبسكرة، ولجأ إليها الثوار للاستقرار وقصدها كذلك أهل ميزاب للعلم والتجارة ، وقد اشتهر الجزائريون في تونس في مجال العلم والسياسة وأصبح الكثير منهم قادة للحركة الوطنية ويكفي أن نذكر أن حسن قلاتي وعبد العزيز الثعالبي ومحمد السنوسي وحسن لعريبي ومحمد النوري والطيب المهيري جميعهم من عائلات

جزائرية استقرت في تونس وقد قدرت بعض الإحصائيات أعداد الجزائريين في تونس عام 1950 بخمسين ألفا ومن اكبر جالياتهم أهل سوف والمقرانيون و زواوة.

وأدى تردد الطلبة الجزائريين على المعاهد الدينية في تونس وقدوم الطلبة التونسيين للدراسة بجامعة الجزائر الفرنسية الى تعزيز الروابط بين النخب المثقفة وهي روابط بين النخب المثقفة وهي روابط وطدت العلاقة بين مختلف المشارب الفكرية والأحزاب ا لوطنية التي قامت على أكتافهم وقد عززت الصحافة والجمعيات وتلك الزيارات التي كان يقوم بها بعض العلماء والزعماء الى الجزائر محمد عبدوه ،بيرم،عبد العزيز الثعالبي.

وقد سمحت ظروف الحرب العالمية الثانية بتبلور توجهات ثورية ورسم خطط منسقة بين الجزائريين والتونسيين للثورة على فرنسا وجرت عدة اتصالات بين قادة الحركات الوطنية في أوروبا زالقاهرة وأكدت على أهمية التنسيق السياسي واستغلال جميع الفرص للضغط على فرنسا وقد أدى تصلب الاستعمار في مواجهة الحركات الوطنية في البلدان الثلاث إلى بروز قوة ثورية أصبح لها وزنها على حساب القيادات التقليدية .

وقد اجتهد مناضلوا حزب الشعب المحل في إرساء ميثاق تحالف جمع بين الأحزاب الوطنية الثلاث حزب الشعب الجزائري ،الحزب الدستوري الحر التونسي وحزب الاستقلال المغربي ، ونص على إقامة جبهة موحدى ضد الاستعمار وأخذ هذا التوافق الضمني صبغته الرسمية بإنشاء مكتب المغرب العربي عام 1947 ولجنى تحرير المغرب العربي عام 1948 وعلى الرغم من أهمية التنظيمين الا أن تجسيد مقررات الوحدة والتنسيق لم يتم تفعيلها مما دفع حركات الانتصار للحريات الديمقراطية للتحرك على الصعيد المغرب العربي بحثا عن تنيسق ميداني وفعال ،وقد أرسلتالأمين دباغين الى تونس للتباحث مع المناضلين التونسيين في أمر تشكيل منظمة سرية في تونس تنسق عملها مع المنظمة السرية الجزائرية .وفي جانفي 1949 أرسلت بعثة ثانية ضمت بن بلة ،بوقدوم ودردور للالتقاء مع المناضلين التونسيين والتباحث مع الحزب الدستوري الحر خطة إنشاء جبهة كفاح مغاربية موحدة لكن صالح بن يوسف تردد بشأن ذلك وشكك بنجاح مغامرة لم يضعه حزبه في الحسبان.

وعلى محدثيه بالقول أن أي توحيد للجهود يعرقل استقلال تونس وهي تختلف في وضعيتها عن الجزائر التي تعد مستعمرة فرنسية ولم يستطع ابن بلة اختراق الحزب ولكنه كسب عددا من المناضلين لفكرته واتفق معهم على التعاون في مجال صنع المتفجرات وعاد ابن بلة ومعه مجموعة من الخبراء
).لتدريب الدستوريين على صنع واستخدام المتفجرات)

اندلعت الثورة المسلحة في تونس عام 1952 إثر تأزم القضية التونسية وتسليط سياسة القمع، بدأت بإمكانيات بسيطة معتمدة أسلوب حرب العصابات ،وبعضها كان موجها من قبل قادة الحزب الدستوري الحر والبعض الآخر هب بتلقائية أو بتوجيه من الخطابي ، وما لبث أن احتواهم الحزب كما حدث في المغرب ،وقد اشتدت المقاومة عام 1953 ، في حين لم تكن حصيلتها بالملفتة للانتباه86 :

قتيلا و 224 جريحا بين عسكريين ومدنيين، يضاف إليهم 92 قتيلا و 33 جريحا من أعوان فرنسا (490وبدأت هذه المقاومة تقلق هاجس الإدارة الفرنسية باستمراريتها وتأثيراتها، فكانت خشية منداس(كبيرة من أن تتطور الأحداث لتخلق مشكلة جديدة في شمال أفريقيا ، وهذا Mendes France فرانس الشعور نفسه أبلغه إليه مساعده ادغار فور وهو يلح في الاهتمام بتسوية القضية التونسية(491) ، وفي غمرة أحداث ربيع 1954 كلف منداس فرانس يوم 4 جويلية 1954 ألان سافاري بمباشرة الاتصالات مع بورقيبة للخروج من المأزق الجديد، وتبين له انه بإلامكان التعويل على هذا الرجل، وقد توصلت المباحثات إلى وقف المقاومة وتمكين تونس من الحكم الذاتي مقابل الحفاظ على مصالح فرنسا بالإيالة (492، وكانت خطوة مفاجئة للجميع لكنها لم تكن نهاية الحل للمشكلة التونسية ، ذلك أن نداء الباي بوقف(

القتال ومنح بواي دي لاتور الامان للمقاومين لم يضع حدا للقتال ،كما أن المفاوضات تعطلت في يومها الأول ، واندلعت الثورة الجزائرية في هذا الظرف المضطرب ، فوجدت فرنسا نفسها أمام خطر) .حقيقي493)

لقد كان على فرنسا أن تمنع التحام الثوار التونسيين بالثوار الجزائريين كخطوة أولى،وذلك قبل مباشرة المفاوضات الحقيقية لمشروع الحكم الذاتي، وأن تختار بين رهاناتها، فإما التعويل على بورقيبة أو على صالح بن يوسف في المفاوضات من اجل حماية أكبر قدر من المصالح الفرنسية، وكان بورقيبة بمواقفه و تصريحاته الصحفية أقرب للإستراتيجية الفرنسية الهادفة إلى حل مشكلة تونس في إطار استقلال ذاتي يمنح امتيازات واسعة للفرنسيين ويحافظ على الحضور الفرنسي(494)، وقد حسم وفي 21 نوفمبر 1954 دعا بورقيبة باسم الحزب الدستوري الحر المقاومين إلى تسليم أسلحتهم، وصدر في باريس تصريح مشترك بين المقيم العام وحكومة الطاهر بن عمار التونسية جاء فيه انه بمقتضى الاتفاق المبرم بينهما لن يقع بعد ذلك إزعاج" الفلاقة "أو تتبعهم ، وتسلم لكل واحد منهم شهادة صادرة عن المقيم العام ،وستتخذ إجراءات لتسهيل عودة" الفلاقة "إلى استئناف حياتهم العادية بين أهلهم وذويهم(496) ، ويتضح لنا من خلال عنصري السرية والسرعة مدى اضطراب الموقف الفرنسي في معالجة القضية التونسية بمجرد اندلاع الثورة الجزائرية، إذ كان التخوف واضحا من تجدر الخيار الثوري والتحامه بالثورة الجزائر(497)، وسوف يطمئن بورقيبة على تسوية منفردة وسريعة للقضية التونسية ، تحت ضغط ثوار الجزائر، لكن هل كان بورقيبة مطلعا عل مخططات السياسة الفرنسية في شمال إفريقيا، ولماذا لم يضغط أكثر لتحقيق مطامح أكبر بدل الاكتفاء بإنجازات وصفت بأنها لم تكن في مستوى التضحيات التي قدمها المقاومون ،ولماذا لم يفكر في الارتباط بالقضية الجزائرية في حين أنه كان يشجع الجزائريين على الصمود أكثر وهو يفاوض ؟

وعلى الرغم من التلاحم الوطيد بين كفاح البلدين الشقيتين خلال هذه المرحلة إلا أن بورقيبة أقر سياسة قطرية ومضى في تجسيدها، وذلك لاعتبارات عديدة أهمها:

تأكد بورقيبة من تحقيق نتيجة مهمة اعتمادا على فصل القضية التونسية عن قضايا المغرب العربي وإجراء مفاوضات ثنائية تنسجم مع خصوصية الوضعية التونسية ،التي تختلف عن وضعية الجزائر.

تجسيد بورقيبة لسياسته البراغماتية والترويج لمذهبه في معالجة المشكلات التحررية ،وهو مبدأ خذ و طالب الذي يعتمد سياسة المراحل، إذ كان يصرح في كل مرحلة من المفاوضات أنه أنجز خطوة مهمة باتجاه الغاية وهي الاستقلال التام، وأن معالجة القضية التونسية السهلة نوعاً ما سيليه.

إن مشروع الكفاح المغاربي المشترك الذي انتعش بتجدر الثورة الجزائرية واجهته السياسة البورقيبية والمخططات الفرنسية، وإن كان يصعب علينا اتهام بورقيبة بالتورط في دعم المخطط الفرنسي بطريقة مباشرة ،فإنه يكون سهل على الإدارة الفرنسية تجاوز المخاطر التي كانت تحدق بها، واستقل بسياسته القطرية عن الاستراتيجية المغاربية ،وكان متسرعا في التضحية بإنجازات المقاومة العسكرية مقابل الاتفاق المبدئي على مجرد الاستقلال الداخلي، وبسبب ذلك تلقت سياسته معارضة جنينية داخل الحزب وفي صفوف المقاومة ،وانتقادا لاذعا في القاهرة عبرت عنه لجنة تحرير المغرب العربي بما فيها قيادة الثورة الجزائرية.

لقد بدأت مهمة جمع أسلحة المقاومين في الفترة ما بين30 نوفمبر و 10ديسمبر 1954، وواجهت اللجنة المشرفة صعوبات كثيرة ،وكانت الحصيلة استسلام 2713 مقاوم وتسليم 2105 قطعة سلاح ،وهكذا استجاب كثير من قادة المقاومة لندا تسليم السلاح تحت تأثيرات مختلفة واضعين ثقتهم في المفاوضين السياسيين ،لكن واحدا من أشهر قادة المقاومة وهو الطاهر لسود أعلن رفضه لتسليم السلاح ودعا المقاومين إلى عدم وضع الثقة في فرنسا، وإلى مواصلة الكفاح حتى تتحقق نتائجه

في الميدان ،وقد عبر بورقيبة عن تخوفه من هذا الأمر، وأرسل ابنه ليحث لسود على الاستجابة لندا الحزب. غير أن الطاهر لسود أصر على موقفه وأبدى عدم ثقته في المفاوضات ،وإيمانه بضرورة التحرير الشامل في هذه المرحلة الحساسة ،مؤكدا أن اشتعال ثورة الجزائر يدعم كفاح تونس وجميع وتجاوب مع موقفه هذا جنوده الذين يناهزون السبعين مقاوما ،وعدد من قادة الفرق والمقاومين الذين أكدوا علنا مؤازرتهم لموقف الطاهر لسود، ومنهم قائد ثوار الحوايا محمد قرفة الذي

احتفظ بالأسلحة الصالحة ولم يسلم إلا القطع الفاسدة، ويبدوا أن هذه الظاهرة صاحبت عملية التسليم في

مناطق عديدة، وأقرها أفراد من اللجنة المشرفة على جمع الأسلحة ،والذين أظهروا امتعاضهم من هذه الخطوة المريبة .

وقد أعلن الطاهر لسود عن انتقاله إلى الحدود التونسية . الجزائرية لمساندة الثورة الجزائرية، وتوجهت بدورها العناصر الجزائرية المقاومة لتلتحق بصفوف الثورة الجزائرية،وقد كانت هذه

العناصر الثورية تؤمن بالمعركة المغاربية المشتركة أينما كان ميدانها ومؤطروها، وتستند في ذاك إلى مرجعية لجنة تحرير المغرب العربي.

وأبدى قادة الحزب الدستوري الحر المتمسكون بالخيار الثوري تحفظهم على إجراء تسليم الأسلحة،ولم يكونوا مرتاحين لفصل القضية التونسية ولا لمنحى المفاوضات، وتجنبا لأي انشقاق داخلي

قبلوا بمبدأ تسليم الأسلحة كرها، وكان من الصعب إقناع المناضلين التونسيين بخيارات بورقيبة، خاصة

العاملين في لجنة تحرير المغرب العربي الذين آمنوا أن الثورة الجزائرية بثت الروح من جديد في مبادئ اللجنة، وأنها أكدت التصميم على خوض المعركة الموحدة ضد العدو المشترك ،وقد عبر الكثير منهم عن قناعاتهم النضالية بوحدة المعركة، وقد جاء في رسالة المناضل التونسي مراد بوخريص

الموجهة إلى الرشيد إدريس تأكيد على هذا التوجه "...هذا وقد جاء بعد ذلك الحدث العظيم وثارت الجزائر الباسلة في أول نوفمبر ،وتوحد الكفاح المسلح في كامل شمال إفريقيا ،وهرع عدد من فرق جيش التحرير التونسي وأخذت تقاتل إلى جانب قوات جيش التحرير الجزائري منذ اليوم الثاني من نوفمبر).

"(كما أن شعور التضامن الوحدوي كان يدفع إلى توحيد الموقف وتنسيقه في إطار مكتب المغرب العربي بالشكل الذي يحقق مطامح شعوب المنطقة، فتشجع الوفد الخارجي للجبهة للاعتماد نذكر على سبيل المثال المناضل محمد الحبيب المولهي المكلف من قبل الحزب برئاسة لجنة جمع السلاح وشهادته مهمة في موضوع الاحتفاظ بالاسلحة وتسليمها للجزائريين ، وتحت تأثير العلاقات جهوده في تمرير الأسلحة عبر ليبيا وتونس مع أنصار صالح بن يوسف التي نسجها في القاهرة مع قادة الثورة الجزائرية وجه صالح بن يوسف انتقادات حادة لخطوات سير هذه المفاوضات،وقد بعث بتقرير إلى هياكل الحزب بالداخل في 14ديسمبر 1954 أعرب فيه عن عدم ارتياحه لمبدأ المفاوضات بين الحكومتين التونسية والفرنسية، خاصة وأن ثقة زائدة قد وضعت في فرنسا بقبول تسليم السلاح ،وأكد نشدان تونس لمبدأ الاستقلال التام: "لم يضح الوطنيون ولم يستشهدوا للمطالبة بالاستقلال الداخلي إنها مرحلة اجتزناها، واجتازها الشعب، فكيف بنا بعد أن بعثنا بإخواننا إلى الموت من أجل الاستقلال نصبح نكيل المرابين على اعتدالنا وتراجعنا دون أي مبرر ؟ وهدد في بيان أصدره في مطلع سنة 1955 بالعودة من جديد إلى حمل السلاح مقدما مقترحاته التي لا تقف على حدود الاستقلال الذاتي بل تؤكد على السيادة التامة لتونس.

ويمكننا أن نؤكد على ضوء تتبع مواقفه أنه بدأ منذ بداية عام 1955يعيد قراءة حساباته و يصطدم بسياسة بورقيبة ويندمج في المشروع المغاربي الشمولي ،ولم يعلن ذلك صراحة إلا عقب

الإعلان عن اتفاقية الاستقلال الداخلي في 03 جوان 1955.

وقد كسب ابن يوسف الدعم المصري وارتبط بعلاقات وثيقة مع ممثلي الوفد الخارجي الجزائري في القاهرة من اجل تنسيق مهمتين أساسيتين هما: تشكيل لجنة مشتركة جزائرية تونسية في ليبيا لاستقبال وتمرير الأسلحة يشرف عليها عبد العزيز شوشان، وحضور مؤتمر باندونغ بوفد مغاربي يمثل الأقطار الثلاثة إعزازا للقضية الجزائرية وتأكيدا على وحدة القضايا المغاربية

ويتضح من خلال ما سبق أن معارضة الحل البورقيبي للقضية التونسية ،و تأكيد الالتحام العسكري والسياسي المغاربي تجسد في المرحلة الأولى من اندلاع الثورة الجزائرية وترسخ بعد إعلانإتفاقية الاستقلال الذاتي، وعلى الرغم من غموض المرحلة وشح المصادر ،إلا أنه يمكن التشديد على وجود علاقات مبكرة ومثمرة نسجتها المقاومتين في الميدان قبل مرحلة ميلاد جيش التحرير التونسي.

وبحكم العلاقات المتينة التي كانت تربط الشعبين الشقيقين حفل كفاح البلدين ضد الاستعمار بكثير من مظاهر التضامن والتآزر، تجسدت أسمى معانيها في مشاركة الجزائريين في المقاومة التونسية منذ عام 1952،ومشاركة التونسيين في الثورة الجزائرية منذ اندلاعها ،وقد كانت تتواجد بتونس جالية.

خاتمة:

وهكذا يتضح لنا انه واجهت علاقات جيش التحرير التونسي بالثورة الجزائرية صعوبات كثيرة ، ولا شك أن ضعف الجيش التونسي واستلام فرقة تباعا ،واضطرار الثورة الجزائرية للتعامل مع السلطات الحكومية ساهم في القضاء على مشروع التنسيق بين الجيشين وحلم الوحدة المغاربية في الكفاح المشترك ليطرح بدائل أخرى بدت أنها مقبولة واقعيا، وقد أفادت هذه التجربة في تأكيد بعد التضامن المغاربي وتجسيد استقلال تونس وتقوية نفوذ الثورة الجزائرية في تونس .

ونؤكد على دور جيش التحرير التونسي المهم في تمرير الأسلحة وتمركز نشاط المجاهدين الجزائريين في المناطق الاستراتيجية وخاصة في الجنوب الجزائري.